

تاريخ وأدب

مدن الحضارات

في القديم والحديث

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

- ٢ -

الحق أن المسجد الأموي بدمشق هو ذخر للمسلمين بمدالكمة المكرمة ؛ وقد قال فيه الرحالة المقدسي : « الجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين لليوم ، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه ، ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجرع كل شامة إلى أختها ؛ ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد كل يوم صنعة » . ولقد زار دمشق كثير من الرحالين المسلمين ووصفوا آثارها في آثارهم ، وأخذوا بروعة الجامع الأموي وكال صنمه . ومنهم ابن بطوطة الذي قال فيه : « وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسناً وبهجة وكالاً ، ولا يعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه » .

وكانت قصور الأمراء على الجبل في دمشق الأموية تمثل الحضارة العربية أبجل تمثيل ؛ لأنها قصور دولة قامت على أكتاف العرب ، واستقامت على كواهلهم . إلا أن هذه القصور كانت تجمع بين البساطة العربية والفتخامة الرومانية . ولخادم الراوية وصف لدار الخليفة هشام بن عبد الملك يقول فيه : « إنها دار قوراء مفروشة بالرخام ؛ وهو - يعني الخليفة - في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب ، وحيطانه كذلك » . وصف يزيد بن المهلب دار ولى عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال (دخلتها فإذا هي دار مجصصة حيطانها وسقوفها . ثم أدخلت داراً أخرى فإذا حيطانها وسقوفها خضر ، وإذا وصفهاؤها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلى الزمرد

على أنه يلوح لنا أن هذا الوصف فيه كثير من الخيال للشائق والبالغة اللذينة . وأن هذه الرواية تنمت بشيء من الإهراق في الوصف لثم محاسن الموصوف ... ألا أنه من المحقق أن هذه

العاصمة الإسلامية الكبرى ازدحمت بالقصور للشاهقة في جوف المدينة أو على نجوة منها

... ثم يدور كوكب التنصن - كعادته - على دمشق
تتمسك الخلافة الأموية ويشرد أبناء الخلفاء ؛ ويتحسبهم للعباسيون في كل مكان ؛ ويُفري للشراء الخليفة العباسي بقتلهم وإبادتهم حتى لا يحسوا منهم من أحد أو يجمعوا لهم ركزاً . ويقول في ذلك شاعر أحياناً مشهورة منها هذا البيت :
جرد الحيف وارفح السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أموياً
وكان ذلك في الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة . فتنتقل الخلافة إلى بغداد التي بناها أبو جعفر المنصور وجعلها مقر الملك وحاضرة الخلافة .

و (بغداد) قديمة في التاريخ . وترجع إلى أثنى سنة قبل الميلاد في عهد البابليين ، وقد ورد ذكرها في حَجَر ، Michaux ، التي وجد كُتُب على ضفاف نهر دجلة وعليه تاريخ يرجع إلى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد . ومما يدل على قدم بغداد رصيف نهري اكتشفت بقاياها وأحجاره على نهر دجلة بواسطة العلامة الإنجليزي السير هنري رالنسون ، وعليه لوحة تحمل اسم أحد ملوك بابل القدماء .

وفي عهد الإسلام كانت (بغداد) في الشرق ، وقرطبة في الغرب تقاسمان سيادة العالم في التجارة والثراء والثقافة والحضارة . ولقد أوحى ليالي بغداد وقصورها وجسورها ومالها وغاداتها وغلماها وجواربها وشمراؤها وممتوها إلى مؤلف (قصص ألف ليلة وليلة) خيلاً واسعاً كل الصعة ، مبدعاً كل الإبداع . تلك القمص الشاهقة الجميلة التي ترجمت أول ما ترجمت إلى الفرنسية سنة ١٧٠٤ بواسطة الكاتب الفرنسي (جالاند)

وتقيض كتب التاريخ والأسفار والأدب في وصف بغداد ، وتطيل في ذلك الكلام إطالة لا يدخلها ملل ، وخاصة في عصور المنصور مؤسسها والرشد وولده المأمون . وهم الخلفاء الثلاثة البارزون في العصر العباسي

وكانت بيوت بغداد وقصورها تبني من الطوب والقرميد ، لا من الحجر - كما كان الشأن في دمشق - لأنها في منطقة غير صخرية . وكانت هذه البيوت تشرف على المبرين من نهر دجلة ، وتمتالي في أجواز السماء إلى علو شاهق ، وتحيط بها البساتين الناضرة ، وتجري في وسطها الجداول النسيانية

تحت أفياء أشجارها ، وغرد أطيارها ، وتتلألاً في وسطها النندر
للمصافية والبرك الصقيلة

والبحترى للشاعر الرقيق يصف لنا بركة التوكل في شعر
نصوري جميل ، ويصور انكاس النجوم عليها ليلاً فتبدو كأنها
سماء أرضية أو يصف انسياب وفود الماء فيها ممجلة كأنها الخيل
وهي تخرج من حيال مجربها ، ويقول في ذلك :

تنساب فيها وفود الماء ممجلة كالخيل خارجة من حبل مجربها
ويقول في المعنى الأول ولعله أول مخترع له :

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حبت سماء ركبت فيها
والقصيدة مشهورة معروفة في كتب الأدب فلا معنى
لكتابها هنا

والآيات التالية تصور لنا أصدق تصوير ارتفاع القصر
المروف بالكامل في بغداد ، وتصف لنا في بيان عذب شرفاته
المطلة على حيك السماء ورياضه المتمطرة بأرج الأزهار وهي :

لما كنت روية وعزيمةً أمحلت رأبك في ابتناء (الكامل)
وغدوت من بين الملوكة موفقاً منه لأيمن حلة ومنازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل
أغتنه دجلة إذ تلاحق فيضها

عن صوب متسكب للحجاب الماطل
رفعت لمحترق للحجاب سموكة وزهت مجائب حسنه المتخايل
وتنفضت فيه الصبا فتعظرت أشجاره من حول وحوامل
وكان نهر دجلة في ذلك الحين يكاد ينص بالحرامات الكثيرة ،
والزوارق الجيلة تهادي فوق مياهه المتكسرة ، وكننا يذكر
أبيات أبو نواس في وصف حراقة الأمين

اشتهرت تلك العاصمة الاسلامية العظيمة فيما اشتهرت
بنوع من الحرير المعروف بحرير (المتشاية) نسبة إلى
المتشاي (بتشديد التاء) الصحابي الجليل . وأخذت هذه
الكلمة إلى اللغات الأوروبية باسم نابي Tabby دلالة على الحرير
الغني بالألوان المائية للكثيرة الزاهية

ومن المزم في تاريخ بغداد أن تلك القصور العظيمة قد دكت
من القواعد ، وأن تلك الرياض الناضرة قد صوحت ، وأن تلك
البرك الصقيلة قد جف ماؤها واندمم للسكون إليها ، وأن هذه
الأنسجة الجيلة والنياب الحريرية لم يبق لها أثر ، وأن للكتب

التي كانت في دور العلم والحكمة فيها قد ضاعت وغرقت وأحرقت
فيما اختلف على بغداد من حوادث وفتن جسام ، وخاصة في غارة
القتار عليها سنة ٦٥٦ هـ والله يذل من يشاء

ولقد قلت أهمية بغداد نوعاً ما حينما نقلت للعاصمة إلى «سر
من رأى» على يد المعتصم . ألا أنها طردت إلى بعض ما سلف
من جاهها في عهد المستعين بالله حينما عاد إليها هارباً من الأتراك
واستبدادهم . ولكنها لم تستطع أن تسترد مكانها القديمة
وحضارتها العظيمة ، وإن كانت بقيت بمد ذلك حاضرة للإسلام
مدة من الزمان

ومن عجب أنها احتفظت بمد سقوطها باسم عظيم ولقب كريم
فكانت تسمى في الوثائق التركية الرسمية باسم (المدينة للفاقة)
ويدور الزمان على بغداد كما دار على بابل وروما وأثينا
وبزنطة ودمشق فنزل عنها صفة العاصمة ، ونزل عنها الخلافة ؛
ويجىء الخليفة هنا إلى مصر فلا يبقى له غير اسم الخلافة حتى تنتقل
من مصر إلى القسطنطينية في زمن السلطان سليم العثماني في الربع
الأول من القرن للمائتين الهجري

ويظهر في المشرق تيمورلنك المنولى المسلم ، والفاخ العظيم ،
والقاسم في ساح الحروب ، والنفو الرحيم في ميدان العلم ، فيحكم
بغداد ويخضعها لسلطانه حوالي سنة ١٤٠٠ ميلادية

ثم تنتقل بها مجلة الأقدار إلى يد أخرى أجنبية غير عربية ،
هي يد الشاه اسماعيل الصفوي مؤسس الأسرة الصفوية ببلاد
الفرس ، وتصبح بمد ذلك عملاً للنزاع بين الترك والفرس ، وتدار
على أيدي فارسية حيناً ، وتركية حيناً آخر : فيأخذها سليمان الأول
التركي ، ثم يأخذها للشاه عباس للعظيم سنة ١٦٢٠ ويستردها
السلطان مراد للتركي سنة ١٦٣٨ م بمد مذبحه عظيمة عند التسليم
واسم بغداد مدينة السلام ، أو دار السلام . وكلا الاسمين
صحيح . وقد اعترض على أديب بغدادى في مجلة للثقافة للنراء
منكر الاسم الثاني ، وهو اعترض لا محل له ، فقد استعمل هذا
الاسم أكثر من مؤرخ ممن يوثق بهم ، كابن بطوطة ،
وجميل نخلة المدور للعراق ، وصاحب كتاب (حضارة الإسلام
في دار السلام) وجورجي زيدان ، والعلامة محمد كرد علي عالم
الشام ومؤرخها وصاحب خطاطها .